



Journal of University Studies for inclusive Research (USRIJ)
مجلة الدراسات الجامعية للبحوث الشاملة

Journal of University Studies for inclusive Research

Vol.3 , Issue 14 (2021), 2515- 2541

USRIJ Pvt. Ltd.,

الموروث الميثولوجي في الحديث النبوي الشريف

Mythological inherited in the Sharif Prophetic hadith

ط. د. عمر محمود عاصي

PhD Student Omar Mahmoud Assi

Oassi600@gmail.com

جامعة النجاح الوطنية /قسم اللغة العربية

نابلس – فلسطين

An- Najah National University/ college of arts

Nablus- Palestine

2021م

ملخص

يحاول البحث تلمس الموروث الميثولوجي في الحديث النبوي الشريف، وبيان سبب حضوره فيه، لا لغاية الكشف عن صحة الحديث من عدمه؛ إنما في سبيل سبر أغوار هذا الحضور، والبحث في أسباب تجليه فيه، ومحاولة ردّ ذلك الموروث إلى المنبع الأساس الذي نهل منه؛ حتى نعلل سبب هذا الحضور الملحوظ للموروث في الحديث النبوي الشريف دون أن يتعارض ذلك الحضور والرسالة السماوية التي جاء بها، كما يخصص البحث جانباً تطبيقياً؛ في محاولة تلمس ذلك الموروث في عدد من الأحاديث النبوية الشريفة.

كلمات مفتاحية: الميثولوجيا، الحديث النبوي، الموروث، المعتقدات.

Abstract

The research tries to touch the mythological inherited in the Sharif Prophet's hadith, and explain the reason for his presence in it, not for the purpose of revealing the authenticity of the hadith or not. Rather, it is for the sake of probing the depths of this presence, searching for reasons that manifest it in it, and trying to return that inherited to the main source from which it drew; In order to explain the reason for this remarkable presence of the inherited in the Sharif hadith, Without this contradicting the presence and the heavenly message that he brought as the research devotes an applied aspect; In an attempt to touch that legacy in a number of hadiths.

Key words : Mythology, Prophetic hadith, inherited, Beliefs.

المقدمة:

إنّ البحث في الموروث الميثولوجي في أحاديث الرسول ﷺ، لا يُعدُّ طعنا فيها، أو إساءة لها؛ وذلك لأننا إذا فهمنا المقصود من الموروث فهما دقيقا عرفنا أنّ الصورة الراسخة في أذهاننا حول تلك الأساطير غير صحيحة؛ وذلك أننا نتحدث عن معتقدات دينية كان أهل زمانها يؤمنون بها كما نؤمن الآن بما نعتقد؛ لذلك من غير الصحيح أن نتعامل معها على أنها خزعبلات شركية نمر عليها مرور المسرع الحذر، ثم نفتي أنها مما لا يحلُّ التعامل معه أو تناوله أبدا.

ألم يخطر ببالنا أنّ ذلك الموروث يمكن أن يكون قد نهل من نبع عقدي سبقه، قبل أن يُحرّف فيما بعد ليستقر على صورته التي وصلتنا؟ إذا كانت الإجابة لا، كيف نفسر استحضار بعض الأساطير لأشياء تتعلق بالغيب واليوم الآخر من أحاديث البعث، والنشور، وأهوال يوم القيامة، وغيرها؛ وبذلك تشابهت تلك الأساطير أو جزء منها مع ما ورد في بعض الأحاديث؟، إنّ الإجابة على هذا السؤال ليس أمرا سهلا؛ إذ يحتاج الأمر إلى بحث وتحقيق جادين، وهو ما تسعى الدراسة إلى تحقيقه.

يؤكد الدارسون على أنّ الأساطير، "ليست مجرد وهم لا علاقة لها بالواقع أو الحقيقة؛ بل إنّها في نظر مبدعيها من الشعوب والأقوام عين الحقيقة، ولذلك فإنّ أساطير الأولين هي دوما أساطير الآخرين وقلما تجد شعبا من الشعوب يقرُّ بأنّ أساطيره يمكن أن تندرج في باب الأساطير"⁽¹⁾

¹ (عجينة، موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية ودلالاتها 1994، ص9).

إنّ التسليم للقول إنّ الأساطير من وضع الإنسان القديم وفكره، وأنّ الرسول صلى الله عليه وسلم اعتمد عليها في أحاديثه على الرغم من أنها معتقدات باطلة وخرافات قديمة، رأي يحتاج إلى مراجعة؛ لأننا بذلك ندّعي أنّ الحديث كلّه بحاجة إلى مراجعته وإعادة نظر، وذلك في سياق الحكم على صحة نسبتها إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، خصوصاً أنه صلى الله عليه وسلم في بعض أحاديثه نقل عمّن سبقه نصوصاً تمثل موروثاً ميثولوجياً صريحاً، وكان قد أخبر أن لا حرج من القول بما جاء في بعض الإسرائيليات، خصوصاً إذا كان في سياق مالا يتعارض مع قواعد الإسلام، قال صلى الله عليه وسلم: «بَلَّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً، وَحَدِّثُوا عَن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ، وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُنْعَمًا، فَلْيَبْتَوِّأْ مَفْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»⁽²⁾، وكان صلى الله عليه وسلم يشير في كثير من المواضع إلى أنّ بعض الأخبار قد استقاها من بعض الإسرائيليات.

كما أنّ القرآن الكريم نصّ على أنّ بعض ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ودعا إليه هو مما تعرفه العرب قبل الإسلام، يقول تبارك وتعالى: (فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ)، يونس: 94، فقد أباح الله لنبيه أن يسأل أهل الكتاب لما هو مقرر شرعاً من أمر الله لنبيه أمر له ولأمته مما له دليل على الخصوصية والأمر هنا للإباحة كما هو ظاهر"⁽³⁾، وحين سمعت العرب القرآن أول مرة وجدوا فيه ملمحاً من ملامح الأساطير التي يعرفونها، في تشابه القصص والأخبار، يقول تعالى: (وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُرْءَةً وَأَصِيلًا) الفرقان: 3، وقد ردّ سبحانه وتعالى عليهم بأنّ هذا القرآن من علم الله الذي أنزله على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم؛ لكنّه لم ينكر عليهم قولهم بوجود تشابه بين القصص التي جاء بها القرآن والقصص التي يعرفونها، فقال سبحانه رداً عليهم: (قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) الفرقان: 6.

إنّ البحث في علاقة الحديث مع الموروث الميثولوجي القديم بالشكل العلمي الموضوعي السليم، وبيان طبيعة ذلك الاتصال الذي جعل بعض المعتقدات القديمة تلتقي ونصّ الحديث الشريف، يخدم الحديث الشريف أولاً، ويجلي الصورة الحقيقية للموروث الميثولوجي القديم ثانياً، والناظر في مقالات وأبحاث من يتهمون الحديث النبوي بالنقل الصريح عن الأساطير التي تخالف الدين وتعتدي على أسسه العقديّة، يجدهم يتساءلون: كيف للرسول صلى الله عليه وسلم أن ينقل عن التوراة والإنجيل في الوقت الذي يتهمها فيه

² (البخاري (256هـ، 870م)، صحيح البخاري 2002م، رقم الحديث 3461).

³ الذهبي (ت 1397هـ، 1977م)، الإسرائيليات في التفسير والحديث (1990م، ص 43).

بالتحريف والضلال؟، وهذا قول في ظاهره صواب؛ لأن التشابه بينهما ملحوظ؛ لكن مثل تلك الدراسات حق أريد به باطل؛ والدراسة تسعى من خلال البحث في حقيقة ذلك الموروث وكشف أصوله، لأن تجلي للقارئ حقيقة التشابه بين الموروث والحديث النبوي، وكيف حضر ذلك الموروث في الحديث الشريف دون أن يفسده.

أولا- آدم وحواء في الميثولوجيا:

لقد ركزت الأساطير القديمة على قصة الخلق الأولى، والكيفية التي خُلق الكون من خلالها، ثم الحالة التي آل إليها، كما عرّجت على قضية وجود الإنسان على الأرض، وأين كان قبل ذلك، وقد كانت تلك الأسئلة محلّ تفكير الإنسان؛ إذ "كانت مسألة بدء العالم والحياة والإنسان، من أولى المسائل التي ألحّت على العقل البشري، والتي تصدى لمعالجتها منذ فجر طفولته، فلا نكاد نجد شعبا من الشعوب إلّا ولديه أسطورة أو مجموعة من أساطير الخلق والتكوين، وأصول الأشياء"⁽⁴⁾، تذكر الأسطورة السومرية أنّ الآلهة الصغار قد تعبوا من جلب الطعام والشراب، فذهبوا إلى الإله إنكي الذي كان نائما في أعماق المياه، فطلبوا منه أن يجد لهم حلا يريحهم من ذلك التعب، فاستجاب لهم إنكي فقام بصنع قالب لشكل الإنسان، وطبيعته وروحه، وقد جعل فيه شيئا من حكمته وعلمه، ثمّ ملأ ذلك القالب من طين الصلصال من مياه الألبسو، ليخلق الإنسان الأول؛ وذلك لخدمة الآلهة الصغيرة وعبادتها، تقول الأسطورة:

نهض الإله إنكي على كلمات والدته

ودخل القاعة المقدسة وأخذ يضرب فخذه وهو يفكر

الحكيم، العليم، البصير، الذي يدرك كل شيء وكل فن

جلب الأيدي وصاغ صدره (صدر الانسان)

إنكي الخالق وصنع داخل مخلوقه شيئا من حكمته

ونادى أمه الآلهة نمو وقال لها:

أمي المخلوق الذي أوجدته اربطي به عمل الآلهة

وبعد أن تخلطي الطين الذي تأخذينه من مياه الإلبسو

عليك أن تضعي الطين وتكوني المخلوق"⁽⁵⁾.

⁴ (السواح، مغامرة العقل الاولى- دراسة في الأسطورة 1996م، ص27).

⁵ (الماجدي، أنبياء سومريون- كيف تحول عشرة ملوك سومريون إلى عشرة أنبياء توراتيون؟ 2028م، ص 112).

في نصّ الأسطورة ذكر واضح لقضية خلق الانسان، وأنّه خُلِقَ من صلصال من طين كما ورد في نصّ القرآن الكريم، (خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ) الرحمن: 14، ثم بعد ذلك وضع الإله إنكي في هذا المخلوق شيئاً من علمه، وقد علّم الله آدم الأسماء كلها يقول سبحانه: (وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) البقرة: 31، ثم طلب إنكي من أمه أن تأخذ الطين من مياه نهر الإيسو ليكون خلق الإنسان من الماء، وذلك متوافق مع قوله تعالى: (وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ) النور: 45.

وفي الأساطير الفارسية ورد ذكر عملية خلق الإنسان الأول في الأسطورة التي تتحدث عن صراع الآلهة، فأهريمن بعد صراعة من أهورامزدا والتغلب عليه كان قد خبأ في الأرض بذورا وقد نبتت بعد أربعين سنة، فكان من بين تلك النباتات والأشجار شجرة مقدسة خرج منها أول زوج من البشر⁽⁶⁾، وفي أسطورة فارسية أخرى نصّها: أنّ الإنسان خُلِقَ في بادئ الأمر مكوناً من ذكر وأنثى متصلين من الخلف، ثم رأى الخالق أن يفصل أحدهما عن الآخر⁽⁷⁾، وهي إشارة إلى آدم وحواء، وقصة الخلق البابلية هذه تلتقي مع ما ذكره المفسرون لقصة خلق آدم في فترة استواء خلقه قبل أن تُنفخ فيه الروح، حيث أن الطين الذي خُلِقَ منه كان لازباً لنا؛ فترك أربعين سنة حتى صار صلصالاً كالفخار⁽⁸⁾. وفي الموروث البابلي ركزت الملحمة البابلية المشهورة (الانويما ابليش) ملحمة الخلق البابلية، تتحدث الملحمة عن خلق الآلهة والكون، والإنسان، وقد جاءت الملحمة مقسمة إلى ألواح عدة، وفي اللوح السادس تذكر الملحمة قصة خلق الإنسان الأول (لالو) الإنسان؛ وذلك لخدمة الآلهة وعبادتها، تقول الأسطورة:

فلما انتهى مردوخ من سماع حديث الآلهة

حفزه قلبه لخلق مبدع

فأسرّ لايا بما يعتمل في نفسه

واطلعه على ما عقد عليه العزم:

“سأخلق دماء وعظاماً

⁶ (عزيز، أساطير التوراة الكبرى وتراث الشرق الأدنى القديم، 2006م، ص72).

⁷ (عزيز، 2006، ص73).

⁸ ينظر: (عجينة، موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية ودلالاتها، 1994، ص175).

منها سأشکل (لالو) وسيكون اسمه إنساناً

نعم ، سوف أخلق لألو الإنسان

وسنفرض عليه خدمة الآلهة فيخلدون للراحة

ثم عمد إلى تنظيم أمور الآلهة

كلهم عظيم ، ولكنني سأجعلهم في فريقين"⁽⁹⁾.

وفي هذا السياق نتساءل: لم قُسمت الملحمة إلى ألواح، ومن أين استمدت الأساطير هذا

المصطلح المقدس؟

تُجمع الكتب المقدسة المختلفة على أنّ الألواح المقدسة تخصُّ نبي الله موسى ﷺ ، وهي التي حملها معه بعد عودته من مياعده مع ربه، يقول تعالى: (وَأَلْقَى الْأَلْوَحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ) الأعراف: 150، فما سر هذا التشابه؟، يرجع تاريخ كتابة الملحمة البابلية إلى مطلع القرن الثاني قبل الميلاد، وهو زمن لاحق للزمان الذي عاش فيه موسى ﷺ ، و"الربانيين اليهود قد حددوا الفترة ما بين 1391 - 1271 قبل الميلاد فترة للنشاط الموسوي، وبعض المراجع الأخرى المسيحية واليهودية تقترض تاريخاً أحدث أو أقدم لما اقترحه الربانيون؛ فتعيده للقرن الخامس عشر أو تقربه للقرن الحادي عشر قبل الميلاد؛ ولعل الفراعنة تحتمس الثالث ورعمسيس الثاني ومرنبتاح هم الأكثر ترجيحاً لأن يكون أحدهم فرعون موسى"⁽¹⁰⁾، وبذلك تكون ألواح موسى سبقت ألواح أسطورة الانيوما ابليش، أليس من الممكن أن تكون الأسطورة قد تأثرن بألواح موسى ؟.

إن الإنسان الأول في قصص الخلق تشير إلى آدم ؛ فهو أول البشر وأكثرهم أتصالا بالآلهة، فقد خُلق في السماء ثم أهبط الأرض، وكان خلقه من طين قبل أن تنفخ فيه الروح، وقد اتفقت الأساطير على ذلك وهو أيضا ما ذكرته الكتب المقدسة؛ وبذلك يتشكل نوعا من الاتفاق بينها جميعا على قصة خلق آدم أبو البشر.

⁹ (فراس السواح، مغامرة العقل الاولى، 1996 ص82).

¹⁰ - https://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%85%D9%88%D8%B3%D9%89#cite_note-15

بالإضافة إلى قصة الخلق عند السومريين، والبابليين، وفارس، برزت قصة الخلق الإغريقية، تنصّ الأسطورة على أنّ الإله (بروميثوس) هو من خلق الإنسان وشكّله، وقد خلقه من الطين، وفي أسطورة أخرى إنّ الإله (تو) قد صنع رجلا من الطين الأحمر⁽¹¹⁾، وعند الفراعنة فإنّ الإله (خنوم) هو الذي يصنع البشر من دولابه الفخاري⁽¹²⁾.

قصة الخلق في الكتب المقدسة:

إذا سلّمنا جدلا أنّ هناك بشرا سكنوا الأرض قبل آدم، وقد اندثرت تلك الأجناس تماما، ثمّ خلق آدم، هل يمكن أن يكون الإنسان قد ورث معتقداته، وبنى أساطيره معتمدا على إرث أولئك المندثرين الذين سبقوا آدم بآلاف السنين، ولم يبق من أثرهم إلا بعض الهياكل العظمية في المكتشفات؟ أليس من الصواب أن نقول أنه اعتمد على بعض ما جاء به آدم والأنبياء من بعده؟.

المتأمل في الكتب المقدسة المختلفة يجدها جميعا تتفق على أنّ آدم عليه السلام هو أول البشر، ولم يكن قبله من مخلوقات بشرية، ويؤرخون لبداية الخلق بحوالي (5000) إلى (6000) عام قبل الميلاد فالتاريخ العبري يعتبر خلق آدم هو بداية التاريخ، ونحن حاليا في العام (5769) عبري، ما يعني أنّ آدم خلق في العام (3760) قبل الميلاد، كما أنّ المؤرخين المسلمين يعتبرون ما بين آدم ومحمد صلى الله عليه وسلم حوالي (5000) سنة، أي أنّ أول البشر خلق في العام (4200) قبل الميلاد⁽¹³⁾، فإذا كانت الأساطير مجتمعة تحدثت عن قصة الخلق والتكوين، وكيف خلق آدم ونزل إلى الأرض، أليس هذا دليل على أنّ هذه الأساطير كتبت بعد آدم؟

فإذا كان هناك بشر يملكون عقلا يتفكر، وقلبا يتأمل، ثم يوجدون لأنفسهم آلهة يعبدونها، لم لا تذكرهم الأساطير التي بدأت في حديثها عن الأرض بآدم وحواء، دون أن تشير إلى تلك المخلوقات؟ خلاصة القول: إنّ الزعم بالقول إنّ هناك بشرا سكنوا الأرض قبل آدم وقد تلقفوا موروّثهم الديني منهم، قول غير صحيح؛ بدليل من ورد في الأساطير في قصص الخلق والتكوين على أنّ أول الخلق من البشر كان آدم، وهذا يدفعنا إلى تبني الرأي القائل: إنّ الذين ذكّرتهم الآية من الخلق (أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ) البقرة: 30، هم من غير البشر، فقد كانت مخلوقات من

¹¹ (فريديز (ت1359، 1941م)، الفولكلور في العهد القديم، 1982م، ج1، ص118).

¹² عزيز، أساطير التوراة الكبرى وتراث الشرق الأدنى القديم، 2006، ص44).

¹³ (شحرور: القصص القرآني قراءة معاصرة، مجلد 1، 2010م، ص232).

الجن، وهذا ما ذهب إليه غير مفسر ومأرخ، وقد أورد أقوالهم ابن كثير في تفاسيره، من ذلك قول ابن عباس: "أَنَّ الْجِنَّ أَفْسَدُوا فِي الْأَرْضِ قَبْلَ نَبِيِّ اللَّهِ آدَمَ، فَقَالَتِ الْمَلَائِكَةُ ذَلِكَ، فَقَاسُوا هُوَ لَاءَ بِأَوْلَائِكَ"⁽¹⁴⁾.
ألا يكون بذلك دين آدم عليه السلام قد سبق الأساطير؟، ولا زال ديننا صحيحا إلى أن دخله اللغو والتحريف، بعد أن أعمل فيه الإنسان فكره وجهده فاستوى إلى شكل الأساطير النهائي الذي وصلنا، نتيجة لذلك يكون من البدهي أن بعضا مما ورد في هذه الأساطير يشبه ما ورد في القصص القرآني والحديث النبوي، والقرآن يؤكد على أنه جاء بأخبار الأنبياء والأمم السابقة، يقول تعالى: (ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقِصُهُ) هود: 100.

وقد جاء صلى الله عليه وسلم بما جاءت به الأنبياء من قبله، فملة الإسلام واحدة لا خلاف بينها إلا في تفاصيل بعض العبادات، يقول تعالى: (قُلْ أَمَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ) آل عمران: 84.

بناءً على ما سبق يمكن القول: إن التشابه الملحوظ بين النص القرآني والحديث الشريف من جهة، وبعض الأساطير من جهة أخرى هو بسبب المنبع الذي نهلت منه الأساطير، وهو الموروث الديني الذي جاء به الأنبياء.

ثانيا- الموروث الميثولوجي في الحديث النبوي:

يتناول الباب الثاني من البحث بعض أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم محاولا سبر أغوار الموروث الميثولوجي فيها، وليس في هذا مدعاة للغلو والتشدد في القول أن لا تشابه مطلقا بين النقيضين، فالحديث كلام نبي مسدد من الله، والأساطير خرافات شركية باطلة، وهنا يقع المدافعون في مأزق الردّ على القائلين بأن الحديث ترديد لتلك الأباطيل، والمتأمل لتلك الدراسات يجدها على صواب في تحليلها؛ فهي تستحضر نصوصا أسطورية مشابهة تماما لما بين أيدينا من بعض الأحاديث، فوجه الشبه بينهما لا يشتبه على أحد وقد جمع محمد بهاء الدين في كتابه "المستشرقون والحديث النبوي" شبهات المستشرقين التي أثاروها حول الحديث ومحاولاتهم الحثيثة للظعن فيه⁽¹⁵⁾.

14 (ابن كثير) (ت774هـ، 1381م)، تفسير ابن كثير، مجلد 1، 1999م، تفسير سورة البقرة).

15 محمد بهاء الدين، المستشرقون والحديث النبوي، دار النفائس 2000م.

لكن؛ كيف نشبت أنّ ذلك التشابه دليل على صدق رسالته ﷺ، وعلى أنّ ما جاءت به الرسل من آدم حتى محمد ﷺ متوافق تماما، فما أخبر به ﷺ قد أخبرت به الأنبياء والمرسلون جميعا، ومن الأحاديث الصحيحة التي تربط بين ما جاءت به الرسل مثل هذه الأحاديث، ولا أقول الأساطير؛ لأنها في حقيقة الأمر تلقفت تلك الإشارات من علم السماء الذي جاءت به الرسل من عند الله، وأمثلة ذلك في الأحاديث كثيرة نورد منها ما يأتي:

الحديث الأول:

قال ﷺ: «ما من مؤلودٍ يُولَدُ إِلَّا نَحَسَهُ الشَّيْطَانُ، فَيَسْتَهْلُ صَارِحًا مِنْ نَحْسَةِ الشَّيْطَانِ، إِلَّا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ، ثُمَّ قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: أَفَرُّوْا إِنْ شِئْتُمْ: {وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ} [آل عمران: 36]»⁽¹⁶⁾.

كثيرة هي الأحاديث التي حدّث فيها ﷺ عن الشيطان واصفا له، والسبيل إلى التحصن منه، والشيطان خلق من خلق الله، خلقه من نار، لكن بسبب كبره طرده من رحمته، وقد ذُكر تفصيل ذلك في غير موضع من القرآن الكريم والسنة العطرة، وقد أقسم بعزة الله أنه سيشتغل بغواية ابن آدم والمكر بهم، وقد صح عنه ﷺ أنه قال: «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنْ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ»⁽¹⁷⁾، والباحث في الميثولوجيا القديمة يجد أنّ صورة الشيطان المتمثلة في ذهن الإنسان القديم وفكره، كانت مشابهة تماما لتلك الصورة، فقد كان يُسمى في جميع المعتقدات شيطانا، يقوم بالأعمال الشريرة التي تقع للبشر، وهو سبب الذنوب والمعاصي.

في الميثولوجيا القديمة يمتلك الشيطان قدرات تمكنه من محاربة الآلهة والتصدي لها، من ذلك ما ذُكر في الديانة الزردشتية القديمة، فقد ورد في كتابها المقدس (أفيستا): "من البلدان الشمالية أسرع أنكرامانيو مليئا بالموت، إبليس الأبالسة، هكذا قال الشرير والمليء بالموت أنكرامانيو: تقدم أيها الدروج واقتل زرادشت الصالح فأحاط به الدروج والشيطان يويتي"⁽¹⁸⁾، فهو بنصّ المعتقدات الزردشتية رمز الضلال والهلاك، ومن يتبعه يورد نفسه المهالك، لتكون نهايته الجحيم في العالم السفلي حيث يسكن الشيطان.

¹⁶ ابو الحسين بن مسلم بن الحجاج بن مسلم (ت 261، 883م)، صحيح مسلم، تحقيق: نصر بن محمد الفاريابي، دار طيبة 2006م، رقم الحديث 2366.

¹⁷ (مسلم، صحيح مسلم (ت 261، 883م)، رقم الحديث 2174).

¹⁸ (عبدالرحمن، إفيستا الكتاب المقدس للديانة الزردشتية، روافد للثقافة والفنون 2008م، ذكر في الهامش).

وفي الأساطير المصرية كان الإله سيت رمز العماء والظلام الذي يعادي الطبيعة وينقض نظامها المقدس، ويعمل على نشر الفوضى فيها، يسكن سيت في الجهة الشمالية من السماء وهي إقليم الظلام، والبرد، والمطر، والضباب، والرعد، ومنه تأتي العواصف والأعاصير⁽¹⁹⁾، والمتأمل صورة الشيطان في العهد القديم يجد تشابها ملحوظا بينها وبين ما ورد في موروثات الأولين، "فقد أخذوا بعضها من الأدب البابلي في أثناء أسرهم؛ ولكن أرجح من هذا أنهم أخذوها قبل ذلك العهد بزمن طويل من مصادر سامية وسومرية قديمة، كانت منتشرة في جميع بلاد الشرق الأدنى"⁽²⁰⁾.

لقد استلهم الجاهليون صورة الشيطان من أساطير الحضارات القديمة، فرسموا له صورة مماثلة لما ذكر في فيها، فقد وصفوه في أشعارهم وقصصهم على أنه مصدر للشر والبؤس، وقد أضاف الجاهليون في معتقدتهم حول الشيطان أن جعلوه مصدرا للإلهام في قول الشعر ونظمه، وقد زعم بعضهم أن الشعر من نفث الشيطان، أو رقي الشيطان كما عند جرير الذي يقول⁽²¹⁾

رَأَيْتُ رُقَى الشَّيْطَانِ لَا تَسْتَفْزُهُ
وَقَدْ كَانَ شَيْطَانِي مِنَ الْجَنِّ رَاقِيَا

وبذلك تتفق المعتقدات جميعها على صورة واحدة للشيطان تجعل منه رمزا للشر والبؤس؛ وهو ما يتفق وحديث الرسول ﷺ، الذي جاء بما جاءت به الأنبياء قلبه، ودعا إلى ما دعوا إليه، خصوصا نبي الله آدم عليه السلام، الذي أخرج من الجنة إلى الأرض عقابا له؛ لأنه أطاع الشيطان الذي مكر به وأغواه، لتكون تلك أول جولة صراع بين الشيطان والأنسان وأهمها.

الحديث الثاني:

يقول راوي الحديث: كُنَّا جُلُوسًا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْبَطْحَاءِ ، فَمَرَّتْ سَحَابَةٌ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «أَنْتَدِرُونَ مَا هَذَا ؟ قَالَ: قُلْنَا: السَّحَابُ، قَالَ: وَالْمُرْنُ قُلْنَا: وَالْمُرْنُ، قَالَ: وَالْعَنَا، قَالَ: فَسَكْتْنَا، فَقَالَ: هَلْ تَدْرُونَ كَمْ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ؟ قَالَ: قُلْنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: بَيْنَهُمَا مَسِيرَةٌ خَمْسَمِائَةِ سَنَةٍ ، وَمِنْ كُلِّ سَمَاءٍ إِلَى سَمَاءٍ مَسِيرَةٌ خَمْسَمِائَةِ سَنَةٍ، وَكَثْفُ كُلِّ سَمَاءٍ خَمْسَمِائَةِ سَنَةٍ وَفَوْقَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ بَحْرٌ بَيْنَ أَسْفَلِهِ وَأَعْلَاهُ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، ثُمَّ فَوْقَ ذَلِكَ ثَمَانِيَةٌ

¹⁹ ينظر: (السواح، مغامرة العقل الأولى، 1996، ص58).

²⁰ (ديورانت (ت 1401هـ، 1981م)، قصة الحضارة، مجلد 1، ج2، 2001م، ص368).

²¹ (جرير (ت 653هـ 728 م)، ديوان جرير، 1119م).

أوعالٍ بين رُكْبِهِنَّ وأظلافِهِنَّ كما بينَ السَّمَاءِ والأَرْضِ، ثمَّ فوقَ ذلكَ
العَرْشُ بينَ أسْفلهِ وأَعلاهُ كما بينَ السَّمَاءِ والأَرْضِ، واللهُ تبارَكَ وتعالى فوقَ ذلكَ»(22).
وفي حديثٍ آخر :

عن أبي هريرة قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «كلُّ شيءٍ خلقَ من ماءٍ»(23).

ورد في سياق الحديث الأول ذكر البحر السماوي، وهو بحر يقع بين السماء السابعة وعرش الرحمن، والله عز وجل يستوي على العرش، وفي الحديث الثاني: يؤكد النبي ﷺ لأبي هريرة أنّ الخلق كلّهُ كان من الماء، وهو ما يتفق مع قوله تعالى: (وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ) النور: 45، ومع قوله أيضاً: (وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ) الأنبياء: 30، ولاشك أنه عليه وسلم لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، وما يعزز صحة الحديث مواعمه لما جاء في القرآن الكريم، وقضية خلق الكون قضية عامة في المعتقدات جميعاً، وتكاد تكون الروايات حولها متشابهة إلى حدٍّ بعيدٍ، - ولا أقصد بذلك تفاصيل عملية الخلق؛ إنما الفكرة الرئيسية التي قامت عليها العملية وهي خلق الكون من الماء-، والمتأمل يجد أنّ هذا الحديث يتفق وجزءاً لا بأس به مع الميثولوجيا القديمة التي تحدّثت عنها وأردت حولها حكايات وروايات مختلفة، وبناء عليه تكون معرفة الجاهليين بقضية الخلق من الماء سابقة لمعرفته عليه وسلم، وقد اتفقت الأساطير على أنّ الكون خُلِقَ من الماء.

فالإله بوسيدون عند الإغريق هو إله البحار الذي خَلَقَ الكون، وعند السومريين الإله إنكي الذي خلق الكون من الماء تقول الأسطورة:

وبعد أن تفرقت مياه التكوين

وعمت البركة أقطار السماء

غطى الزرع والعشب وجه الارض

إنكي إله الغمر أنكي الملك

وقد بنى مدينته التي يستريح فيها في أعماق البحر كما كل الالهة»(24).

وفي الحضارة المصرية القديمة "فإن الكون تشكل من المحيط البدئي المتمثل في الإله نون، ومن

هذا المحيط المقدس تكونت

22 (الأمام أحمد(ت 855هـ،780م)، مسند الإمام أحمد بن حنبل، 1969م، 3/202).

23 (الأمام أحمد(ت 855هـ،780م)، مسند الإمام أحمد بن حنبل، 1969م، 15/72).

24 (السواح، مغامرة العقل الأولى، 1996، ص48-49).

الأرض، وقد أنجب الإله نون المحيط العظيم ابنه الإله آتوم الذي ينكر خلق والده له، ويدّعي أنه خلق نفسه من مياه المحط²⁵.

وإذا نظرنا في الكتاب المقدس وجدنا المعتقدات نفسها؛ إذ يوافق الأساطير في قضية خلق الكون من الماء، فقد ورد في إصحاح التكوين: "في البدء خلق الله السماوات والأرض، وكانت الأرض خربة وخالية وعلى وجه الغمر ظلمة، وروح الله يرف على وجه الماء وقال الله ليكن نور فكان نور، وفصل الله بين النور والظلمة وقال الله ليكن جلد في وسط المياه فكان، وليكن فاصلاً بين مياه ومياه..."⁽²⁶⁾، وقد شكلت هذه المرجعيات موروثاً ميثولوجياً كان حاضراً في حديث الرسول ﷺ، ولا يفهم من هذا أنّ الرسول ﷺ نقل تلك الأساطير إلينا نصّاً كما وردت، وأنّه اعتمد عليها في رواية حديثه، لا؛ لأنّ ذلك يدلّ أنّ الموروث العقدي الصحيح كان من علم الله الذي علمه الإنسان؛ وقد صورته كل أمة بطريقتها، فمنها من حورت فيه وبدلت، ومنها من حفظته كما جاءها من الأنبياء والكتب المقدسة المختلفة، وما ورد في أحاديث الرسول ﷺ كان من علم الله الذي علمه الأنبياء ﷺ.

الحديث الثالث: حادثة سحر الرسول ﷺ:

عن عائشة رضي الله عنها قالت: «سحر رسول الله ﷺ رجل من بني زريق يقال له لبيد بن الأعصم، حتى كان رسول الله ﷺ يخيل إليه أنّه كان يفعل الشيء وما فعله، حتى إذا كان ذات يوم- أو ذات ليلة- وهو عندي، لكنه دعا ودعا، ثم قال: يا عائشة أشعرت أن الله أفناني فيما استفتيته فيه، أتاني رجلان فقعد أحدهما عند رأسي والآخر عند رجليّ، فقال أحدهما لصاحبه: ما وجع الرجل؟ فقال: مطبوب، قال: من طبه؟ قال: لبيد بن الأعصم، قال: في أي شيء؟ قال: في مشط ومشاطة، وجف طلع نخلة ذكر، قال: وأين هو؟ قال: في بئر ذروان، فأتاها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في ناس من أصحابه، فجاء فقال: يا عائشة كأن ماءها نقاعة الحناء، أو كأن رؤوس نخلها رؤوس الشياطين، قلت: يا رسول الله، أفلا استخرجته؟ فقال: قد عافاني الله، فكرهت أن أتور على الناس فيه شراً، فأمر بها فدفنت. تابعه أبو أسامة وأبو ضمرة وابن أبي الزناد عن هشام. وقال الليث وابن عيينة عن هشام: (في مشط ومشاطة)»⁽²⁷⁾.

²⁵ (س بريوشينكين (S. Prioshenkin)، أسرار الفيزياء والميثولوجيا القديمة، 2006م، ص 7-8).

²⁶ (الكتاب المقدس: العهد القديم سفر التكوين الإصحاح الأول، ص 1).

²⁷ (البخاري (ت 256هـ، 870م)، صحيح البخاري، 2002م، رقم الحديث 5763).

تُعدُّ قضية سحر النبي ﷺ من القضايا التي أثارت ضجة بين الباحثين، فمنهم من نفي احتمالية أن يكون عليه وسلم قد سحر، وأنه كان يخيل إليه أنه يفعل الشيء ولا يفعله، وهو لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وفريق قال بوجود السحر وأكدّه؛ لأنها وردت في صحيح البخاري (أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، 256هـ، 870م)، الذي لا يمكن أن يعتريه خطأ أو زلل، فكان ممن نفي الحادثة أن شكك في صحة الحديث وأنه نسب للنبي ﷺ فيما بعد، وأنّ القصة في أصلها منحولة؛ لكن ما يهمنا في هذا السياق هو البحث في الموروث المضمّر خلف القصة، من ثمّ كشف أسرارها ليتجلى للقارئ شيئاً من معالم القصة وتفصيلاتها؛ فيكون قادراً على الحكم على وقوع الحادثة أو نفيها.

ولعلّ السبب الرئيس الذي اعتمد عليه المعارضون لحادثة السحر هي العناصر المكونة لها؛ فهي تعتمد على (الجن، والبئر، والشعر، والمشط)، وهي مصطلحات تحمل دلالات أسطورية في الفكر القديم، ترتبط بالسحر في المقام الأول، وقد تسللت تلك المعتقدات إلى فكر الجاهلي لتبدو واضحة فيه، ومهمة البحث هو الكشف عن ذلك الموروث الذي يحتوي تلك المصطلحات ويوظفها.

الجن: تُعدُّ قضية الخوف من الجنّ من الأمور التي شغلت الإنسان على مرّ الأزمان؛ إذ شكّل الجنّ مصدر إزعاج للبشر والآلهة على حدّ سواء، فالشيطان ومنذ خروجه من الجنة وبعد أن أقسم أن يشتغل ببني آدم غواية وإرهاباً، ولا يزال يشكل مصدر إلهام خصب لمن يضع الأساطير ويشكّلها، كما استغل الكهّان تلك القضية لاستغلال الناس واستقطابهم إلى المعابد حتى يتحصنوا من تلك المخلوقات المخيفة فيقبضوا بذلك مآربهم، فقد كانوا يعتقدون سحراً مضاداً للسحر السيء الذي يعدُّ لهم، فصورها بأخوف الصور، ومنحوها قدرات خارقة تمكنها من العبث بحياة الإنسان كيف تشاء، وقد كانت تتخذ من الحيوانات والأشكال المرعبة أجساداً تظهر من خلالها، "منها ما يخفى ولا يظهر لأحد، ومنها ما يخفى عن أناس ويظهر لآخرين بالرقى والعزائم"⁽²⁸⁾، ولم يجد الإنسان سبيلاً إلى التحرر منها واتقاء شرها إلاّ من خلال التقرب إليها بالطاعة والعبادة، وهي بدورها تقابل تلك القرابين والعبادات بالعمو وتقديم بعض الخدمات للإنسان، من ذلك المساعدة في تشكيل السحر وإيقاعه بالآخرين؛ لذلك كان مصطلح خادم

السحر الذي يكلف بمهمة متابعة السحر وتولي أمر إرهاب المسحور وتلبسه، "ومن العرب من عبد الجن وتسمى بأسمائها مثل عمرو بن عبد الجن بن عائذ، وعمرو بن عبد الجن التنوخي"⁽²⁹⁾.

لقد برزت تلك الصورة السيئة للجن في مختلف الثقافات الإنسانية؛ ففي ثقافة البابليين والأشوريين كان يطلق على الجن (لاماتشو) وهي كائن خرافي يتمثل صورة حيوانية، أو إنسانية، أو وحش غريب، أو مختلطة من عناصر متنوعة في نفس الوقت، معظمها أرواح شريرة تلحق الأذى بالإنسان، وهناك الجن الطيبة، يستعين بها السحرة لمقاومة الجن الشريرة وإبطال سحرهم الخبيث³⁰، حسب هذه الأسطورة لا يمكن التعامل مع الجن والاستعانة بهم إن خيرا وإن شرا إلا من خلال السحر الذي يصنعه السحرة والمشعوذون؛ فبه يستطيع الإنسان أن يتصل بعالم الجن وفرض بعض السيطرة عليه، ولا نكاد نجد حضارة من الحضارات ألا وآمنت بالسحر، وآثاره العجيبة على حياة الإنسان وطاقته، "ومن القوى التي يستشironها في عملية التنبؤ بالغيب أرواح الموتى من الملوك، و أرواح الأسلاف"⁽³¹⁾.

ومن الصور المماثلة لتلك الصورة ما ورد في حضارة وادي النيل؛ فقد كانوا يعتقدون بوجود قرين من الجن ملازم للإنسان لا يفارقه، لا في نوم ولا في يقظة، وهو من الجن الشريرة التي ترهق الإنسان وتسبب له المتاعب³²، والقول بوجود القرين والقدرات الخارقة التي تمكنه من التحكم بالإنسان وإحداث الأذى والمشقة له مؤكدة في مختلف المعتقدات الوضعية، والديانات السماوية؛ فقد أكد القرآن على وجود قرين مقيض للإنسان يقوم بمهمة الوسوسة له، بهدف غوايته، يقول تعالى: (وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِيضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ) الزخرف: 36، وفي الحديث: أن عائشة قالت: «يا رسول الله، أو معي شيطان؟ قال: نعم قلت: ومع كل إنسان؟ قال: نعم قلت: ومعك؟ يا رسول الله، قال: نعم، ولكن ربّي أعانني عليه حتى أسلم»⁽³³⁾.

أمّا عن علاقة السحر بالجن وارتباطه به، فقد لخصها القرآن الكريم في سورة البقرة في قوله: (وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ

²⁹ (عجينة: موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية ودلالاتها، ج2، 1994، ص12).

³⁰ ينظر: (الأشقر (ت1433هـ، 2012م)، عالم السحر والشعوذة، 1997، ص18).

³¹ ينظر: (المعلوف (ت1397هـ، 1977م)، عبق، 1936، ص255).

³² ينظر: (الجواهري، علم الفولكلور، ج 2، 1988، ص372).

³³ (الإمام مسلم، صحيح مسلم (ت 261، 883م)، صحيح مسلم، رقم الحديث 2815).

السَّحَرِ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلَّمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرُّوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) البقرة: 102.

في الآية دليل واضح على أن الجن في علاقة مباشرة بالسحر تقوم به وتؤديه كما يمكن أن تعلمه الإنسان، وقد ورد ذكر هاروت وماروت في معتقدات الأرمن" إن هاروت وماروت هما اسما إلهين قديمين كاذبين كانا يعبدانها الأرمن القديمة، وقد ذكر مؤرخو الأرمن أن الأرمن كانوا يعبدون إلهين اسمهما باللغة الأرمنية(هوروت وموروت)⁽³⁴⁾.

في الحديث أن لبيد بن الأعصم قد كان استعان بالجن لعقد سحره؛ فتكفلوا بأذية الرسول صلى الله عليه وسلم وأثروا في وعيه حتى أصبح يخيل إليه أنه يفعل الأشياء وهو لا يفعلها، وهو الأمر الذي نجح فيه سحرة فرعون الذين استعانوا بالجن على سحر عيني موسى ليخيل إليه رؤية أشياء غير حقيقة، مثل تحرك الحبال والعصي، يقول تعالى: (فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى) طه: 66، وهو سحر التخيل الذي يصنعه سحرة البشر بمساعدة الجن، وبذلك تتشابه الصورة التي رسمها الحديث للجن وما حدث لموسى، فليس بعيدا أن تكون الأساطير استمدت روايتها عن قصة سحرة فرعون.

البئر: للبئر في الميثولوجيا القديمة حضور بارز خصوصا في الفكر الجاهلي؛ إذ يمثل رمزية الحياة والموت؛ ففيه الماء مصدر الحياة ومنه خلق الكون، منه تبدأ رحلة الأموات إلى العالم السفلي، عالم الفناء والظلام، مسكن الجن، والشياطين، والأرواح الشريرة، التي كانت تشكل مصدر خوف للإنسان، وقد اضطر إلى القيام بطقوس معينة أمل أن يتقي شرها ويتجنب أذيتها، وقد تطورت بعد ذلك لتشكل صورة من صور القداسة عندهم، "فغدت البئر في نظر الإنسان مقدسة؛ لأنها تصل بين عالمه الأرضي والعالم السفلي، فهي بوابة هذا العالم ومنفذه من خلالها ينزل الموتى إلى هذا العالم الذي يشكل طبقة وسطى بين الارض ومياه الغمر الأولى"⁽³⁵⁾.

³⁴ <https://www.elhaq.com/17-sources-of0islam/120-2009-08-10-16-21-31?start=7>.

³⁵ الديك، إحسان، 2009 "البئر بوابة العالم السفلي في الشعر الجاهلي"، الجامعة الأردنية - عمادة البحث العلمي 2009م، مجلد 35، ص32.

ومن مظاهر قداسة البئر عند العرب أنهم كانوا ينصبون عليها أصنامهم، وقد فعل ذلك عمرو بن لحي حينما قدم بالأصنام فقد، "نصب هبل على بئر الأخسف في جوف الكعبة، وإساف ونائلة على حافتي بئر زمزم"³⁶، وإذا ما بحثنا عن أصل تلك القداسة للبئر في الموروث الجاهلي اهتدينا إلى الأساطير القديمة؛ فهي المنبع الرئيس الذي نهل منه الجاهلي معتقده، فجلجامش تنبه إلى أهمية البئر وقداسته؛ فقام بحفر بئر قرباناً للإله "شماش" تقول الأسطورة:

"وأمام الإله شماش حفر بئراً

وصعد جلجامش إلى الجبل

وقدم وجبته إلى البئر

وقال: أيها الجبل أرسل لي حلماً"⁽³⁷⁾

وقد كانت العرب تعتقد أنّ أماكن وجود الماء خصوصاً البئر هي مسكونة من الجن والشياطين، وأنّ الشياطين تتخذ فيها هيئة الأفاعي، وأن أماكن المياه مسكونة بأرواح الجن، فالأفعى الجنية كانت تخرج من بئر الكعبة⁽³⁸⁾، والمتأمل يجد أن قداسة البئر وأسطرته استمرت حتى بعد الإسلام، فهي موئل الأرواح بعد الموت، وقد قسموها إلى: طاهرة خاصة بأرواح المؤمنين، وسيئة خاصة بأرواح الكفار تلقى فيها عقاباً لها على كفرها ومعاصيها، وقد أورد الألباني حديثاً للنبي صلى الله عليه وسلم يقول فيه: «خير ماء على وجه الأرض ماء زمزم،... وشراً ماء على وجه الأرض ماء بوادي برهوت بقبة حضر موت»⁽³⁹⁾.

وواد برهوت هذا يقع في حضرموت في اليمن، تُروى حوله أساطير عدة، كان لها دور في تشكل تلك النظرة إلى البئر؛ فقد حفره الجن ليضعوا فيها العصاة منهم، ثم ليكون عقاباً للعصاة من البشر بعد الموت؛ وبناء على هذه النظرة الجمعية للبئر وارتباطه بالجن لأنهم السبب في إيجادها، كان خير مكان يمكن أن يُحفظ فيه السحر الذي يُستعان من خلاله بالجن لسحر الإنسان والسيطرة على عقله هي الآبار.

³⁶ (الأزرقى (ت250هـ، 864م)، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، ص161).

³⁷ (باقرت (ت1405هـ، 1984م)، ملحمة جلجامش، 1980م، ص262).

³⁸ ينظر: الديك، إحسان، 2009 "البئر بوابة العالم السفلي في الشعر الجاهلي"، الجامعة الأردنية - عمادة البحث العلمي 2009م، مجلد 35، ص36.

³⁹ (الألباني (ت1420هـ، 1999م)، صحيح الجامع، 1988م، رقم الحديث 3322).

وفي المعتقد اليهودي تعيش الجن مع الأرواح الشريرة في المغاور والآبار⁽⁴⁰⁾، وقد شاع عند العرب في الجاهلية أنّ الصحراء مليئة بالجن؛ فهم يتخذون من كلّ مكان مهجور مسكناً لهم، خصوصاً الآبار، والكهوف، ووراء الحجارة⁽⁴¹⁾، ومن الأماكن المشهورة عندهم جبل سواج، "إنّ للجن جبل تسكنه يدعى سواج"⁽⁴²⁾، وأرضاً مشهورة تحلّ فيها تدعى عبقر⁽⁴³⁾، وقد كانت الآبار أماكنها المفضلة؛ لأنها تربطها بالعالم السفلي، موطن الشر والأرواح الخبيثة التي تمثل الطرف القوي في الصراع مع آلهة الخير التي تسكن السماء؛ لذلك كان البئر بالنسبة للسحرة خير مكان يضعون فيه السحر، ليكون مُحَرِّزاً من العبث، فلا يصل إليه بشر ولا تغفل عنه الجن في مسكنها، وهو ما فعله لبيد بن الأعصم كما في نصّ الحديث؛ إذ لم يستطع أحد أن يكشف مكان السحر أو الوصول إليه إلا بعد تدخل الملائكة قوة الخير المقابلة في السماء.

الشَّعْر: اعتقد الإنسان منذ القدم بوجود قوة خفية في أجسام الكائنات، وأنّ تلك القوة تكمن في جزء من أجسادها، ففي الحيوانات تركزت القوة في قرونها، وفي الطيور تركزت في مناقرها ومخالبها، أمّا في جسد الإنسان فيعتقد أنّ تلك القوة تكمن في شعره، وإذا ما نُزع ذلك الجزء، مركز القوة في المخلوقات تلاشت القوة وبطل أثرها، وإذا ما قُصّ شعر الإنسان ذهب عنه القوة وتلاشت، وللتشابه الموضوعي والدلالي بين الشعر والقرون قام بالربط بينهما؛ فرمزية القداسة للقرون الموجودة في الأساطير تحمل في دلالاتها الشعر وقروني الشعر للإنسان لتكون معادلة لقرون الحيوان القوية، وهذا ما أكدت عليه قصة شمشون اليهودي ودليلة الفلسطينية التي حفظناها منذ الصغر.

ومن صور القداسة التي وضعها الجاهلي للشَّعر أنه كان يستعين به للتعبير عن حالته النفسية المترتبة عن الموت أو العبادة؛ لهذا كان قصّ الشعر، أو حلقه، ونثره على القبر، أو رميه أمام الصنم، وكذلك عدم تضيفه في قرون طويلة فترة الحداد من مظاهر الحزن على الميت، "وكان يظن أنه إذا لم يقدم الأحياء شعورهم للميت ولم يقوموا بتطهير أنفسهم من ذلك، فإنهم لا يتخلّصون وفقاً لاعتقادهم من تعقب روح الميت ... وإذا مات البدائي قصّ شعره وحفظه في مكان لا تراه النساء ولا غير المتطهرين"

⁴⁰ ينظر: (نعمة: ميثولوجيا وأساطير الشعوب القديمة، 1994، ص106).

⁴¹ ينظر: (الجواهري ، علم الفولكلور، 1998، ص382).

⁴² ينظر: (الجاحظ (ت 255هـ، 869م)، الحيوان، مجلد 6، 1967، ص172).

⁴³ ينظر: (المعلوف، عبقر، مطبعة مجد الشرق 1936، ص259).

⁴⁴، ويبدو ذلك المورث جليا في الديانة اليهودية؛ إذ يصف التلمود الجنية (ليليث) بأنها "امرأة ذات شعر طويل"⁴⁵، فهي أسطورة تربط بين الجن والشعر، فموضع قوة الجنية في شعرها الطويل؛ لذلك كانت تحافظ عليه وترعاه.

وفي الأساطير اليونانية كان من صفات الإلهة أفروديت أنها تملك شعرا خاصا مازها من غيرها من الآلهة، "أفروديت كانت تملك شعرا ذهبيا ناعما، وقد كان معقودا كالإكليل فوق رأسها الجميل"⁴⁶، يمنحها شعرها جمالا وقوة، وقد خصصت له مجموعة من الجنيات حولها؛ يسرحن شعرها ويحافظن عليه، ولا يسمح بتسريحه إلا بمشطها الذهبي الجميل، "وقد عكف بعضهن على ذوائب شعرها الفيشان الذهبي تسرحه بمشط ذهبي تم تضفره غدائر مسترسلة كأموج البحر اللجي، ثم تضم الغدائر بعضها إلى بعض بإكليل من الورد الحمر الجنى"⁴⁷، كما ماز الشعر الطويل الجميل جلجامش الذي كان يمتلك شعرا طويلا، وقد كان يحرص على غسله والاهتمام به بنفسه، وذلك عند الاستعداد للمعارك الحاسمة، فكان يغسل شعره ثم يسدله على ظهره، ثم بعد الانتهاء من تجهيز شعره يضع التاج، ويعمد إلى سلاحه ينظفه ويعدّ عدته:

غسل شعره الطويل، ومسح أسلحته

أسدل شعر رأسه على كتفيه

نضى ثيابه الوسخة، وارتنى ثيابا نظيفة

لبس عباءة وأحاطها بحزام

وعندما وضع جلجامش تاجه على رأسه

44 الديك، إحسان، 2009 "البئر بوابة العالم السفلي في الشعر الجاهلي"، الجامعة الأردنية - عمادة البحث العلمي 2009م، مجلد 35، ص32.

(الأزرقى (ت250هـ، 864م)، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، ص69.

45 (الشامي (ت 1427هـ، 2006م)، موسوعة المصطلحات الدينية اليهودية، 2002، ص176).

46 (كامل، أشهر الأساطير في التاريخ، 2014م، ص124).

47 (نفسه، ص125-126).

شخصت عشتار العظيمة إلى جماله" (48)

وفي قوة الشَّعر وأثره في صاحبه حضور لافت في الأساطير؛ ففي أسطورة هيلانة الفاتنة، التي تنافس على الزواج منها أبناء الملك الثلاثة، وقد كان الأمير الصغير أكثر أخوته حبا لها وكان وفيها مخلصا؛ لكنه ضعيف لا يملك قوة أخوية لتحقيق شروط والده الصعبة، فقدمت له العظاية بعد أن رأت حزنه مساعدتها؛ فكان أن نسجت له رداءً من الكتان الرائع، وهو الشرط الأول، كما ساعدته في الشرط الثاني وهو أن يحضر كلبا صغيرا يدخل في كبريته، أما الشرط الثالث وهو أن يجلب عصفور الشرشور ذي الصوت الذهبي، فكانت من أصعبها عليه؛ لكنَّ العظاية عادت مجددا لتقديم المساعدة فأرشدته إلى قصر يجد فيه طلبه؛ لكن اشترطت عليه أن يربط ذيل حصانه فلا يفلت منه شعرة واحدة وإلا سوف يموت هو وحصانه، ثمَّ أخبرته أن يدخل القصر، ثم ينتزع شعرة من رأس هيلانة، ثم يربط منقار طائر الشرشور الموجود في غرفتها بها، وقد أعطته مشطا، وبيضة، ومنشفة؛ ليستعين بها وقت الخطر، فدخل القصر وفعل كما أرشدته العظاية، فأخذ الطائر ومضى؛ لكن عند خروجه من القصر تحرك ذيل الحصان فلمست شعرة منه سور القصر فارتج القصر، فانتبهت له الجنيات الحارسات وطاردهن لقتله، فألقى المشط لينقلب غابة كثيفة أختبئ فيها ، وأثناء عودته يمكر به أخواه؛ لكن تتنبه هيلانة لذلك وتخبره أنه هو حبيبها المنتظر الذي خلصها مع تلك الشعرة التي نزعها من رأسها من العذاب لسنوات طويلة؛ ففي تلك الشعرة كان السحر الذي أذاقها ألوان العذاب لسنوات طويلة" (49).

تبرز في أسطورة الجميلة هيلانة قيمة الشَّعر والقوة التي تتمثل فيه، فمن خلال شعرة واحدة استطاع الأمير الصغير أن يسيطر على عصفور الشرشور الذي لا يمكن الإمساك به، كما أكدت على علاقة السحر بالشَّعر، فالشعرة التي أخذها من رأس هيلانة كانت موضع السحر في جسدها الذي استمر لسنوات عدة، وقد كانت تعلم أنَّ السحر موجود في شعرها لكنها كانت عاجزة عن التخلص منه؛ لأنه يسيطر عليها تماما، لكن مع نزع الشعرة فُكَّ السحر وبطل أثره، وهو ما يتوافق مع حادثة سحر الرسول صلى الله عليه وسلم الذي لم يستطع أن يتخلص من السحر المعقود من شعره إلا بعد تدخل الملائكة للمساعدة.

48 (السواح، قراءة في ملحمة جلجامش، 1987م، ص147).

49 ينظر: (مجدي كامل، أشهر الأساطير في التاريخ، 2014 ص159-162).

وقد قرن الإغريق بين قوة الشعر وأثره في السيطرة على الآخرين من خلال ارتباطه بالأفعى، وقد تجلى ذلك في أسطورة الإلهة متيرفا التي كانت تحمل بيدها عصا وتلبس درعا، وقد علقت على الدرع رأس وحش يسمى الجورجونة وهي امرأة شعرها من الثعابين، ولها القوة على تجميد من ينظر إليها وتحويله إلى حجر (50).

ولقوة الشعر وأثره كان الحصول على شعر الآخرين من المهمات الصعبة في الأساطير القديمة، ففي الأسطورة اليونانية فرضت ربة الجمال على بسوخي الفاتنة مهمات صعبة في محاولاتها العديدة للتخلص منها؛ وذلك بسبب غيرتها منها بسبب جمالها، فكان من أصعب تلك المهمات هي أن تحصل على ثلاث خصلات من شعر الأغنام نوات البريق الذهبي الموجودة في الحقل (51)، وقد تجلى ذلك الموروث في ثقافة الجاهلين ومعتقدهم، فربطوا بين القوة والشعر، فهذا امرؤ القيس حينما أراد أن يصف قوة فرسه وجمالها نجده يشبه شعرها بشعر النساء المجدول على شكل قرون، يقول: لها غدر كقرون النساء.

وفي سياق الحديث نجد أن ليبيدا ابن الأعصم اعتمد في سحره بشكل أساس على الشعر؛ فقد أخذ شعرات من رأس النبي ﷺ وعقد سحره عليها، وقد نجح في سحره كما نصت رواية الحديث حيث كان ﷺ يخيل إليه أنه يأتي الأشياء وهو لا يفعلها، وهو النبي المعصوم من الناس المؤيد من الله؛ لكنّ السحر أثر فيه؛ وذلك لعلم ليبيد بن الأعصم بأثر الشعر وارتباطه القوي بالسحر، وكذلك قوة المشط الخاص بالأشخاص وأثره العجيب في إيقاع السحر بهم.

الخاتمة:

- إن الموروث الميثولوجي يحتاج إلى دراسات جدية ناضجة تبرؤه من تهمة الغي والضللال التي ألصقتها به بعض الدارسين قليلي العلم، وخير دارس يقوم بتلك المهمة طلاب العلم الشرعي، ليبنوا للناس ما التبس عليهم في أنّ الموروث الميثولوجي مثلّ يوما ما عقائد أمم مختلفة كانت في أصوها صحيحة؛ إذ نهلت من نبع ديني صافٍ، أصبحت اليوم تشكل إرثا حضاريا سميناً يمكن الاستفادة منه.

50 (ينظر: أمين سلامة: الأساطير اليونانية والرومانية، 1988م، ص26).

51 (ينظر: نفسه، ص48).

- إنَّ الخروج بنتيجة أن الأساطير قد نهلت من معتقد ديني سليم أصله علم الأنبياء بداية بآدم مروراً بالأنبياء من بعده، يدفعنا إلى إعادة النظر في الأساطير وفي طريقة دراستها والتعامل معها.
- إنَّ جزءاً من الموروث كان مصدره الكتب المقدسة المختلفة، وعلى الرغم من التحوير والتبديل الذي وقع عليها، إلا أنَّ ملامح المعتقد الصحيح بادية فيه، وأن تلك الإشارات من علم الله الذي علمه الإنسان.
- لقد بدا الموروث الميثولوجي في أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم واضحا جليا.
- لا يعني حضور المورث في الحديث أنه يطعن فيه أو يقلل من شأنه؛ وذلك أنَّ الحديث الشريف جاء ليصحح المفاهيم الخاطئة التي وقع فيها الناس.
- إن توافق الحديث مع ما ورد في الأساطير القديمة يعطي تلك الأساطير شيئا من التوثيق لها.
- لقد بدا الموروث الميثولوجي في حادية سحر الرسول صلى الله عليه وسلم واضحا تماما، وهو ما يدفع البعض إلى إنكارها، وهذا لا يُعدّ دليلا كافيا على نحل القصة، فإذا كان ذلك فإن هذا يعني أنَّ كل ما ورد في الأساطير خرافات لا أساس لها، وبذلك نسقط كما كبيرا من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم الصحيحة، وهذا غلو بعيد عن الصواب.

المراجع والمصادر:

- القرآن الكريم.
- الكتاب المقدس.
- إحسان يعقوب الديك. (2009) "البئر بوابة العالم السفلي في الشعر الجاهلي"، الجامعة الأردنية
- عمادة البحث العلمي مجلد 35.
- سلامة، أمين (1988). الأساطير اليونانية والرومانية. دار الفكر العربي.
- اليربوعي. جرير بن عطية (ت 653هـ 728 م) (1119). ديوان جرير. شرح محمد بن حبيب. تحقيق: نعمان طه. مجلد 1. ط3. دار المعارف. القاهرة.

- فريديز، جيمس جورج (1982)،: الفلوكلور في العهد القديم. ج1 دار المعارف.
- نعمة. حسن(1994)، ميثولوجيا وأساطير الشعوب القديمة. دار الفكر اللبناني. بيروت.
- ابو الحسين بن مسلم بن الحجاج بن مسلم (2006). صحيح مسلم. تحقيق: نصر محمد الفاريابي. دار طيبة.
- خليل، عبدالرحمن(2008). إفستا الكتاب المقدس للديانة الزردشتية. روافد للثقافة والفنون.
- الشامي. رشاد عبدالله الشامي (2002)، موسوعة المصطلحات الدينية اليهودية. المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، القاهرة.
- س بريوشينكين(2006). أسرار الفيزياء والميثولوجيا القديمة. ترجمة: حسان إسحق. دار علاء الدين.
- المعلوف، شفيق عيسى المعلوف(1936). عبر، مطبعة مجد الشرق.
- باقر، طه(1980). ملحمة جلجامش. ط4 . دار الحرية. بغداد.
- الألباني، أبو عبد الرحمن محمد بن الحاج نوح (1988). صحيح الجامع. ط3. المكتب الإسلامي. بيروت.
- الذهلي، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني(1969). مسند الإمام أحمد بن حنبل. تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون. مؤسسة الرسالة، القاهرة.
- البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل(2002). صحيح البخاري. دار ابن كثير. دمشق.
- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر البصري(1967). الحيوان. تحقيق عبد السالم هارون. ط2 . مطبعة مصطفى البابلي الحلبي. مصر.
- ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر(1999). تفسير ابن كثير. مجلد 1. ط2. تحقيق: سامي السلامة. دار طيبة.
- الأشقر، عمر سليمان (1997). عالم السحر والشعوذة. ط3. دار النفائس للنشر والتوزيع. الأردن.
- السواح، فراس(1987). قراءة في ملحمة جلجامش. العربي للطباعة والنشر والتوزيع. دمشق.
- السواح، فراس(1996). مغامرة العقل الاولى- دراسة في الأسطورة- أرض الرافدين سوريا، ط11، دار علاء الدين، دمشق.

- عزيز، كارم محمود(2006). أساطير التوراة الكبرى وتراث الشرق الأدنى القديم. مكتبة النافذة. مصر.
- الماجدي، خزعل(2008). أنبياء سومريون- كيف تحول عشرة ملوك سومريون إلى عشرة أنبياء توراتيون؟. المركز الثقافي للكتاب. المغرب.
- كامل، مجدي(2014). أشهر الأساطير في التاريخ. دار الكتاب العربي. دمشق.
- محمد بهاء، محمد(2000). المستشرقون والحديث النبوي، دار النفائس.
- الذهبي، محمد حسين الذهبي (1990). الإسرائيليات في التفسير والحديث. ط4. مكتبة وهبة. القاهرة.
- شحرور، محمد(2010). القصص القرآني قراءة معاصرة. مجلد 1. دار الساقى. بيروت.
- عجيبة، محمد(1994). موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية ودلالاتها. دار الفارابي. بيروت.
- العقاد، محمود عباس(1985). إبليس. دار نهضة مصر للطباعة والنشر. القاهرة.
- الجواهري، محمد محمود(1988). علم الفولكلور. ج 2. دار المعرفة الجامعية. القاهرة.
- ديورانت، ويليام جيمس(2001). قصة الحضارة. مجلد 1. ج 2 ترجمة: زكي محمود. مكتبة الإسراء. مصر.
- الأزرقى، أبو الوليد محمد بن عبدالله بن أحمد(د.ت)، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، تحقيق: عبد الملك دهيش.

- المواقع الإلكترونية:

- <https://www.elhaq.com/17-sources-of0islam/120-2009-08-10-16-21-31?start=7>.
- https://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%85%D9%88%D8%B3%D9%89#cite_note-15.

resources and references:



- The Holy Quran.
- The Holy Bible.

- Ihsan Yacoub al-Deek. (2009) "The Well gate of the underworld in ignorant poetry", University of Jordan - Deanship of Scientific Research Volume 35.

- Salama, Amin (1988). Greek and Roman mythology. Arab Thought House.

- Yerboi. Greer Ben Attia (T653H 728 AD) (1119). Diwan Greer. Mohammed bin Habib explained. Investigation: Noman Taha. Volume 1. i3. House of Knowledge. Cairo.

- Frieds, James George (1982): Folklore in the Old Testament. C1 House of Knowledge.

- Grace. Hassan (1994), mythology and legends of ancient peoples. Lebanese Thought House. Beirut.

- Abu Al-Hussein bin Muslim bin Al-Hajjaj bin Musallam (2006). True Muslim. Investigation: Nader Mohammed Al-Faraabi. Good house.

- Khalil, Abdul Rahman (2008). The Bible of the Zoroastrian religion was effused. Tributaries of culture and the arts.

- Shami. Rashad Abdullah al-Shami (2002), Encyclopedia of Jewish Religious Terminology. Egyptian Office for The Distribution of Publications, Cairo.

- Secrets of physics and ancient mythology. Translation: Hassan Isaac. Aladdin's House.

- Al-Maalouf, Shafiq Issa Al-Maalouf (1936). Abkar, Glory of the East Press.

- Baqir, Taha (1980). Epic Gilgamesh. I4. Freedom House. Baghdad.



- Albanian, Abu Abdurrahman Mohammed bin Haj Noah (1988). True mosque. i3. Islamic Office. Beirut.
- Al-Sahabi, Abu Abdullah Ahmed bin Mohammed bin Hanbal al-Shaibani (1969). Imam Ahmed bin Hanbal's support. Investigation: Shoaib Arnaout et al. Al-Resala Foundation, Cairo.
- Bukhari, Abu Abdullah Mohammed bin Ismail (2002). True Bukhari. The house of a lot of children. Damascus.
- Al-Ja'er, Abu Osman Amr bin Bahr al-Basri (1967). animal. Investigation of Abdul Salem Haroun. I2. Mustafa Al-Babli Al-Halabi Press. Egypt.
- Ibn Kabir, Imad al-Din Abu al-Fida Ismail bin Omar (1999). I'm explaining a lot. Volume 1. i2. Investigation: Sami Safety. Good house.
- Al-Ashkar, Omar Suleiman (1997). The world of magic and sorcery. i3. Al-Nafis Publishing and Distribution House. Jordan.
- Tourists, Firas (1987). Read in the Epic of Gilgamesh. Arabic printing, publishing and distribution. Damascus.
- Tourists, Firas (1996). The first adventure of reason - a study in the legend - The Land of Mesopotamia Syria, I11, Dar Aladdin, Damascus.
- Aziz, Karem Mahmoud (2006). Legends of the Great Torah and the legacy of the ancient Near East. Window library. Egypt.
- Majdi, Khazal (2008). Sumerian prophets- How did ten Sumerian kings turn into ten Biblical prophets? Cultural Center for Writers. Morocco.



- Kamel, Magdi (2014). The most famous legends in history. Arab Book House. Damascus.
- Mohammed Bahaa, Mohammed (2000). Orientalists and the Prophet's Hadith, Dar al-Nafis.
- Al-Dhahabi, Mohammed Hussein Al-Dhahabi (1990). Israelis in interpretation and hadith. I4. Library and gift. Cairo.
- Shahrour, Mohammed (2010). Qur'anic stories are contemporary reading. Volume 1. Dar al-Saki. Beirut.
- Dough, Muhammad (1994). Encyclopedia of Arab Legends on ignorance and its connotations. Dar al-Farabi. Beirut.
- Akkad, Mahmoud Abbas (1985). devil. Nahda Egypt Printing and Publishing House. Cairo.
- Al-Jawahiri, Mohammed Mahmoud (1988). Folklore. C2. University Knowledge House. Cairo.
- Durant, William James (2001). The story of civilization. Volume 1. C2 Translation: Zaki Mahmoud. Isra Library. Egypt.
- Al-Azraki, Abu al-Walid Mohammed bin Abdullah bin Ahmed (D.T.), Mecca News and Antiquities, Investigation: Abdul Malik Dheish.

websites:

- <https://www.elhaq.com/17-sources-of0islam/120-2009-08-10-16-21-31?start=7>.
- https://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%85%D9%88%D8%B3%D9%89#cite_note-15.